من ثمار التواصل الثقافى بين مصر وفرنسا فى مجال علم النفس

بحث مقدم من

الأستاذ الدكتور

عبد الرحمن العيسوى

من ثمار التواصل الثقافي بين مصر وفرنسا في مجال علم النفس

أهمية التواصل الثقافي بين المجتمعات : ٩

ترجع العلاقات الثقافية الرسمية، وغير الرسمية، بين المجتمعات العربية وفرنسا إلى عهد بعيد يزيد عن المائتي عام. وفي هذه الأيام تثار قضية "العولمة" ولذلك يخشى على الهوية العربية والإسلامية من الذوبان والطمس والزوال في خضم مثل هذه الدعوات العالمية. ومع ذلك فإن الثقافة العربية والإسلامية لا تعرف الانغلاق على الذات، ولا تعرف التعصب أو التحيز، ولكن يخشى على شعور شبابنا بالانتماء الإسلامي والعربي والوطني والأسري أن يناله الضعف في خضم فكرة العولمة هذه. والقاعدة التي تسير عليها مجتمعاتنا العربية، في مضمار التواصل الثقافي، هي الاستفادة من كل زاد، ومن كل فكر ومن منجزات العلم والتكنولوجيا الحديثة، ولكن شريطة أن يتفق ما ننقله مع أمهات ثقافتنا الإسلامية والعربية وعمومياتها، بحيث نحمي أنفسنا وشبابنا من طمس الهوية أو الشخصية، ومن ضعف مشاعر الانتماء في نفسه، وبحيث نتقي ونغربل ونصفي ما نأخذه عن الغرب، مما قد يكون عالقًا به من الشوائب أو الكفر أو الإلحاد أو التفرنج والتحلل الأخلاقي أو النزعات المادية، على حساب النزعات الروحية والقيم الأخلاقية، ومن أمثلة ثمار التواصل الثقافي والعلمي والإيجابي والفعال ما فعله علماؤنا العرب حين نقلوا كثيرًا من مظاهر التراث العلمي في مجال علم النفس إلى البيئة العربية. ومن ذلك أعمال ألفريد بينيه عالم النفس الفرنسي الشهير، وصاحب الاختبار المعروف باسمه والمخصص لقياس ذكاء الأطفال والمراهقين والراشدين. ويكمن وراء تطبيق هذا الاختبار، بعد نقله إعادة تقنينه واستخراج معايير لتفسيره على عينات عربية، وراء هذا تاريخ طويل[1] من الجهاد والكفاح والمثابرة في ملاحم النضال العلمي والثقافي.

ولقد شهد العالم حركة نقل هذا الاختبار من الفرنسية إلى معظم دول العالم، ولم تتخلف مصر عن غيرها من بلاد العالم لي هذا المضمار إذ قام

الأستاذ إسماعيل القباني منذ وقت مبكر يرجع إلى عام ١٩٣٧ بنقل المقياس إلى العربية مع إدخال التعديلات الضرورية عليه لجعله ملائمًا للبيئة المصرية.

وكان من نتائج ذلك أن تيسر للمشتغلين بالقياس العقلي في مصر وغيرها من البلاد الناطقة بالضاد تطبيق هذا المقياس.

وفي الطبعة التي أصدرها كل من تيرمان وميريل في أمريكا صورتان بدلاً من صورة واحدة، كذلك امتد المقياس ليشمل سنوات أكثر، حيث أصبح صالحًا للاستخدام من عمر عامين بدلاً من ثلاثة أعوام، وامتد ليشمل من الرشد كذلك.

وبعد نحو عشرين عامًا من جهود الأستاذ إسماعيل القباني، قام كل من الدكتور محمد عبد السلام أحمد والدكتور لويس كامل مليكه بمراجعة الاختبار وتنقيحه، وقاما بإعداد المعايير ونماذج الإجابات والتأكد من صدقه وثباته وصلاحيته للتطبيق على البيئة العربية.

ألفريد بينيه : حياته ونشأته :

ألفريد بينيه Alfred Binet (١٨٥٧ – ١٩١١م) عالم نفس فرنسي وضع أول اختبار ذكاء مقنن، درس القانون والطب وعلم الحياة، ولكن علم النفس استهواه، فدرس العمليات العقلية العليا، واستخدم اختبارًا قائمًا على استعمال الورقة والقلم. واستخدم الأسئلة اللفظية وبقع الحبر، وكان ذلك أساسًا وبداية لنشأة الاختبارات الإسقاطية، وأصدر مجلة علم النفس الفرنسية ١٨٩٥، ولقد وضع اختباره بتكليف من وزارة التربية الفرنسية لاكتشاف الأطفال المتخلفين عقليًا بين أطفال المدارس الابتدائية، وذلك توطئة لوضعهم في مدارس خاصة بضعاف العقول، والاختبار عبارة عن سلسلة من الأسئلة التي تتدرج في الصعوبة، ويناسب كل منها مستوى معين من مستويات النمو وهو عبارة عن ٣٠ سؤالاً[٢].

يقال إنه ولد عام ١٨٥٦ أو ١٨٥٧ ميلادية، ونشر أول مجلة لعلم النفس

تصدر بالفرنسية عام ١٨٩٤، وابتكر أول اختبار مقنن لقياس الذكاء عام (١٩٠٥) درس القانون والطب والبيولوجيا فى جامعة باريس، وجذبه علم النفس أثناء اشتغاله فى جامعة السربون مع بونيه H.E. Beaunais ولقد أصبح بينيه، فيما بعد، خليفته كمدير لمعمل علم النفس[٣]. ولقد رفض علم النفس التركيبى، واهتم بدراسة العمليات العقلية العليا عن طريق استخدام اختبارات الورقة والقلم وكتب عن الإيحاء، والتنويم، وعن الأمراض ودرس الفروق الفردية Individual differences وكان مساعده تيودور سيمون T.H. Simon يهتم بدراسة ضعاف العقول[٤]. واختباره أول مقياس لقياس الذكاء وضعه بينيه وسيمون فى عام ١٩٠٥. وقاما بمراجعته وتعديله فى عام ١٩٠٨ وفى عام ١٩١١، وتمت ترجمته ومراجعته فى الولايات المتحدة الأمريكية، وظهر بعد ذلك تحت اسم "مقياس ستانفورد – بينيه للذكاء" فى عام ١٩١٦ وانتشر فى جميع أرجاء العالم، ويعتبر الأساس الذى قامت عليه اختبارات الذكاء الحالية، وكان أول مقياس ينجح فى قياس العمليات العقلية العليا فى الإنسان أو الوظائف العقلية العليا، كالتفكير والاستدلال والتجريد والحكم، ولم يكن فى المستطاع قياسها من قبل، وإنما كان يعتمد فى تقدير الذكاء على القدرات الحسية كحدة السمع أو حدة الإبصار أو القدرة على تقدير أوزان بعض الأجسام، وهو أول مقياس طبق فى تصميمه مناهج تقنين الاختبارات أى إيجاد صدق الاختبار Test Validity أى التحقق من أنه يقيس فعلاً ما وضع لقياسه، وهو الذكاء، والتحقق من ثباته Test reliablity بمعنى أنه يعطى دائمًا نفس النتائج كلما أعيد تطبيقه على نفس الأفراد وتحت نفس الظروف[٥].

وهو أشهر مقياس للذكاء فى العالم على الإطلاق، ولقد تمت ترجمته إلى كثير جدًا من اللغات العالمية، من بينها اللغة العربية، حيث ترجمه إلى العربية فى مصر محمد عبد السلام أحمد ولويس كامل ملكيه فى الخمسينات من القرن العشرين. كما قام بترجمته مرة ثانية فى الثمانينات مصرى حنورة وكمال

مرسى. وتمت إعادة تقنينه فى بلدان كثيرة أى إيجاد معايير له Norms، لقد كان هذا الاختبار فتحًا جديدًا فى حركة القياس النفسى العلمى والموضوعى. وبالطبع يجرى تعديله قبل تطبيقه، كما تعاد عملية إيجاد صدقه وثباته، كما حدث له قبل الاستخدام فى المجتمع الأمريكى. والاختبار باسمه الجديد: ستانفورد – بينيه، ينسب إلى الجامعة الأمريكية التى تمت دراسته فيها وتعديله وتقنينه. وفى عام ١٩٣٧ أعادت نفس الجامعة تعديله، وأصبح له صورتان وفى عام ١٩٦٠ تمت مراجعته بإشراف عالم النفس تيرمان Terman، وأصبح مرة ثانية مكونًا من صورة واحدة جيدة المفردات أو البنود أو الأسئلة وهو مقياس يطبق فرديًا Individual، أى على فرد واحد عن طريق باحث واحد، وليس اختبارًا جمعيًا Group test يمكن تطبيقه على مجموعات كبيرة من الأفراد، وتبدأ مفرداته من الاسئلة الصالحة لقياس أطفال العامين إلى سن الرشد. وتتكون هذه المفردات من مفردات لفظية وأخرى عملية، ويصلح هذا الاختبار للتطبيق على الأطفال والمراهقين وشباب الجامعات[٦] ولا يصلح للأميين ولا لكبار السن.

ولاسهام الفريد بينيه أهمية قصوى فى مجال علم النفس، ذلك لأن اختبارات الذكاء يتم تصميمها لقياس القدرات التى تميز الشخص الذكى عن الغبى، ومما لا شك فيه أن الذكاء والغباء يلعبان دورًا رئيسًا فى النجاح المدرسى وفى النجاح المهنى وفى تحقيق التكيف الاجتماعى Brightness and dullness are important in school success, in vocational success, and in social adjustment [٧]

وكذلك يفيد اختبار الذكاء فى تقرير ما يوجد بين الناس من فروق فردية. ولقد طلبت منه الحكومة الفرنسية أن يصمم مقياسًا لفرز الأطفال العاجزين عن مواصلة الدراسة فى المدارس العادية To detect those children who were too dull to profit from ordinary schooling.

ويعد اختبار بينيه الأساس الذى قامت عليه بقية اختبارات الذكاء فى العالم. ولقد كان له الفضل فى تقديم الأساس اللازم لبناء الاختبارات Test

construction وافترض أن الذكاء ينمو مع النمو العادى للطفل، وأن الطفل الغبى يتصرف كما يتصرف الطفل السوى، ولكن الأصغر منه سنًا.

ولذلك كانت وحدة القياس التى اعتمدها بينيه هى العمر العقلى Units of mental age والذى يقابل العمر الزمنى Chronological age الطفل الذكى يسبق عمره العقلى عمره الزمنى، والطفل الغبى يتأخر عمره العقلى عن عمره الزمنى، ومن هنا كانت سهولة تفسير درجات هذا المقياس لدى المعلمين وغيرهم.

والفريد بينيه يعد أبًا لحركة قياس الذكاء المعاصرة، وهو واضع اختبار بينيه لقياس الذكاء Bient-Scale، وحيث أن مساعده سيمون قد ساهم معه فى وضع هذا الاختبار فلقد سمى هذا الاختبار باسم اختبار بينيه – سمون Bient-Simon Scale وهو أول مقياس يوضع لقياس ذكاء أطفال المدارس. ولقد قال بيرت عالم النفس الإنجليزى الشهير عن هذا الاختبار أن بينيه قد نجح فى تصدير شىء ما إلى إنجلترا ولم يرفضه الإنجليز. ولقد رحب علماء النفس فى جميع أنحاء العالم، فى ذلك الوقت بتصميم هذا الاختبار، حيث اعتبروه فتحًا جديدًا فى مجال القياس النفسى. ولقد أثار هذا الاختبار اهتمام العلماء فعكف كثير منهم على مراجعته وتنقيحه، ولكنه ظل مرتبطًا باسم بينيه حتى فى آخر تعديلاته والمعروفة الآن باسم مقياس ستانفورد – بينيه لقياس الذكاء Stanford Bient Scale وذلك نسبة إلى جامعة ستانفورد الأمريكية، حيث قام عالم النفس تيرمان وغيره من علماء هذه الجامعة بتعديل هذا المقياس.

والحقيقة أن بينيه هو الذى رسخ أقدام علم النفس التجريبى فى فرنسا فى الفترة ما بين عام ١٨٩١ حتى ١٩٠٠. والغريب أن بينيه لم يكن من دارسى علم النفس فى بداية حياته، ولكنه درس القانون وحصل على شهادة فيه فى عام ١٨٧٨. ولكن بحوث شاركو Jean Martin Charcot (١٨٢٥ – ١٨٩٢) فى علم النفس شجعته وجذبته نحو هذا الميدان الخصيب، ولذلك تتلمذ على يد

شاركو. وأصدر دراسة فى التنويم المغناطيسى لدى الحيوانات ١٨٨٦. ولقد درس بينيه العلوم الطبيعية وحصل على درجة البكالوريوس فيها عام ١٨٩٠ ثم حصل على درجة الدكتوراه فى ١٨٩٤.

ولقد تأثر بينيه فى حبه للعلم والبحث العلمى، بوالده ووالدته فلقد كان والده طبيبًا، وكانت أمه تهوى دراسة الفن والأدب، ولذلك اتجه بينيه نفسه إلى التأليف فى الأدب، وكتب مسرحية "الرجل الغامض" ١٩١٠ ظلت تعرض لأكثر من خمس وعشرين ليلة على المسرح فى فرنسا.

وكان بينيه مهتمًا بدراسة الجوانب الغامضة من النفس البشرية وظواهرها الخارقة، وانتقد الدراسات المعملية التى كانت تجرى فى ألمانيا لبحثها فى موضوع الإحساسات وردود الأفعال، ولكنه اتجه إلى دراسة العمليات العقلية العليا فى الإنسان ونذكر منها العمليات الآتية :

(١) التفكير، (٢) التخيل، (٣) التصور، (٤) الإدراك، (٥) التعلم، (٦) التذكر، (٧) الإبداع، (٨) الاستنباط، (٩) الاستقراء، (١٠) التعميم، (١١) التمييز، (١٢) التجريد، (١٣) الحكم، (١٤) المقارنة، (١٥) التحليل، (١٦) التركيب.

وهى العمليات التى كانت لا تخضع للقياس النفسى المباشر، فى ذلك الوقت، ولذلك نراه يصدر كتابًا عن الاستدلال (١٨٦٦) وكتابًا عن الوعى المزدوج ١٨٨٦، وعن التغيرات فى الشخصية ١٨٩٢، ولقد ترك أستاذه شاركو وانتقده بشدة لبعده عن النزعة التجريبية فى الدراسات النفسية، وانتهج هو المنهج التجريبى الذى ازداد نشره فى فرنسا.

ولقد أسهم بينيه إسهامًا كبيرًا فى تطور علم النفس المرضى وعلم النفس التربوى والتعليمى فى فرنسا، والواقع أن الاتجاه العلمى لدى بينيه، إنما هو وليد عصره، فلقد سادت النزعة التجريبية فى فرنسا فى هذا العهد.

ومن أشهر دراساته تلك الدراسة التى أجراها على ابنتيه "مدلين وأليس"

والتى نشرها تحت عنوان "دراسة تجريبية فى الذكاء" ١٩٠٣ حيث كان يطلب منها إعمال فكرهما فى بعض المسائل وأن يخبراه بالخطوات التى سارا فيها للوصول إلى الحل. وأكدت له هذه الدراسة إمكانية حدوث التفكير بلا صور، وأدرك أن هناك فروقًا فردية بين ابنتيه فى الوظائف العقلية، ومعروف أن الفروق الفردية التى توجد بين الناس من الأسس التى قامت عليها حركة القياس الكمى فى علم النفس، وهى تلك الفروق التى تميز فردًا معينًا عن غيره من الأفراد، وتوجد هذه الفروق فى كافة السمات والقدرات الجسمية والعقلية والميول والاستعدادات والمهارات والخبرات والمعارف فى الإنسان[٨].

ولقد قال بينيه بوجود نمطين من أنماط الشخصية، وسبق بهما نظرية أنماط الشخصية عند يونج وهما :

أ-النمط الموضوعى Objective.

ب-النمط الذاتى Subjective.

النمط الموضوعى يهتم صاحبه بالعمل والأفعال والحركة والسلوك، أما النمط الذاتى فيميل إلى التفكير الذاتى التأملى أو الاستبطانى، وذهب إلى القول بأن علم النفس هو علم دراسة الأفعال[٩].

ولقد ارتبط بينيه بعلاقة المصاهرة، حيث تزوج ابنة عالم من علماء الحياة، فشجعه ذلك إلى أن يتخصص هو نفسه فى علوم الأحياء، وأدت علاقته هذه إلى أن يصبح الرجل الثانى فى معمل علم النفس الفسيولوجى مساعدًا لصهره الذى كان يتولى رئاسة هذا المعمل، وأصبح بينيه رئيسًا لهذا المعمل عام ١٨٩٥ وظل يعمل مديرًا له حتى وفاته فى العام ١٩١١.

وفى عام ١٩٠٤ اقترح بينيه على وزارة التربية الفرنسية أن تشكل لجنة لدراسة أوضاع الأطفال المتخلفين عقليًا والموجودين فى المدارس مع الأطفال الأسوياء، ويتلقون معهم نفس المناهج والمقررات الدراسية، وبالطبع لا يحققون إنجازات تحصيلية.

وكان بينيه قد حول اهتماماته البحثية، منذ عام ١٨٨٧ لدراسة المدارس دراسة ميدانية، واشتهر عنه أنه أجرى دراسة فى "القدرة العقلية العامة" والتى تعرف الآن بالذكاء العام General intelligence ومن هنا رأت الوزارة أن تعهد إليه برئاسة هذه اللجنة، ولم ينقض عام واحد حتى أصدر بينيه وزميله تيودور سيمون (١٨٧٣ – ١٩٦١) اختباره فى قياس القدرات العقلية العليا وللتمييز بين الأفراد فى هذه القدرات، وهو الاختبار المعروف باسم اختبار بينيه –سيمون ومن خلاله تمكن من تحديد ذكاء الأسوياء وغير الأسوياء، أى ضعاف العقول، وكان ذلك فى عام ١٩٠٥، وفى هذا الصدد وضع تعريفًا للذكاء العام، بأنه قدرة تتميز بالنزعة نحو اتجاه عقلى محدد، والاستمرار فيه، والقدرة على إجراء التعديلات اللازمة وصولاً إلى هدف معين، مع القدرة على النقد الذاتى، ولقد قبل هذا التعريف عالم النفس تيرمان، وأكدت صحة هذا التعريف بحوث التحليل العاملى Factor Analysis التى كان يجريها سبيرمان، من خلال ما ذهبت إليه من أن النشاط العقلى كله يتكون من عامل عام، يوجد فى كل الأنشطة الذهنية، وعامل خاص يوجد فى بعض الأنشطة دون غيرها كالعامل الخاص فى النبوغ فى الموسيقى أو الرياضيات، حيث ترتبط الأنشطة العقلية المختلفة لتكون عاملاً عامًا مشتركًا.

ولم يكن بينيه جامدًا فى فكره أو عمله، حيث أجرى العديد من التعديلات والتنقيحات على مقياسه هذا وكان آخرها عام ١٩١١قبل وفاته، واختباره يتكون من مجموعة من الأسئلة تناسب أطفال الأعمار المختلفة ابتداء من سن الثالثة، فطفل الثالثة يمكن قياس ذكائه عن طريق سؤاله بأن يشير إلى أجزاء من جسمه أو وجهه، كالأنف والأذن والعين، وأن يعرف اسم عائلته، وفى سن الرابعة يعرف الطفل أسماء الأشياء البسيطة فى بيئته، وأن يعرف الفرق فى طول خطين طول أحدهما خمسة سم وطول الآخر ٦ سم وفى سن الحادية عشر يطلب منه تكوين عدة عبارات من كلمات محددة، وأن يعيد تركيبها فى كل مرة

لتعطى معنى جديدًا، وأن يعرف معنى بعض المفاهيم المجردة، كالعطف والشفقة، وفى سن ١٢ سنة يطلب منه أن يشرح موضوع بعض الصور، ويحصل الطفل على درجة تعرب عن عمره العقلى إذا أجاب عن الأسئلة المخصصة لهذا العمر العقلى بصرف النظر عن عمره الزمنى.

ولقد لاقت فكرته عن الذكاء، بأنه قدرة عامة أو قدرة القدرات نجاحًا كبيرًا وقبولاً واسعًا، مما ساعد فى تحقيق هذا النجاح أنه أتيحت له فرصة لتطبيق اختباره هذا على عينات كبيرة من الأطفال الأسوياء والمتخلفين عقليًا.

أثر الفقر فى الذكاء :

وعندما تم تطبيق اختبار بينيه على أطفال مجتمعات أوربية أخرى، أظهر هؤلاء الأطفال تفوقًا كبيرًا عن أطفال بينيه، ولذلك أرجع هذا الفارق إلى المستوى الاجتماعى والاقتصادى، حيث كانت عيناته من الأطفال الفقراء فى باريس، ولقد أوحى إليه هذا أن يكتب مقالة يوضح فيها تأثير الذكاء بالمستوى الاجتماعى والاقتصادى والمهنى لآباء الأطفال أسماه "البؤس الفسيولوجى والبؤس الاجتماعى" وأثرهما على مستوى الذكاء، ومن هذا القبيل كتابة الأفكار العصرية عن الأطفال ١٩٠٩ تضمن أفكارًا عن الطفولة وتوصياته التربوية[١٠].

أعماله ومؤلفاته وجهوده فى تطور علم النفس التجريبى والكمى :

١. دراسات فى علم النفس التجريبى ١٨٨٨م

٢. سيكولوجية الاستدلال ١٨٨٦م.

٣. القيتشية فى الحب ١٨٩١م.

٤. التغيرات فى الشخصية ١٨٩٢م.

٥. التعب الفكرى ١٨٩٨م.

٦. الاستهواء أو الإيحاء ١٩٠٠م.

٧. أصدر المجلة الحولية السيكولوجية ١٨٩٥م.

وكان يعمل فى معمل علم النفس فى جامعة السربون بباريس، ومن بين

أهدافه فى إصدار هذه الحولية نشر الوعى بعلم النفس أو التعريف بعلم النفس والدعوة لتطويره فى فرنسا من خلال نقل تراثه العالمى إلى اللغة الفرنسية، والإعلان عن التجارب الجديدة التى تجرى فى علم النفس سواء فى فرنسا أو فى غيرها[١١].

ويعد بينيه من أنصار علم النفس الكمى والفسيولوجى والقياس الكمى للظواهر أو القدرات العقلية كالتفكير :

Psychophysics and quantitative psychology and measurement

ويقع اختبار بينيه ضمن الاختبارات المعرفية Cogutive tests والتى استخدمت فى عملية التشخيص Diagnosis ويحتوى اختباره هذا على سلسلة من الأعمال منها الألغاز ومسائل حسابية Puzzles and Arithmatic ومفردات لغوية Vocabular items ولقد اعتقد بينيه أن ما نسميه الذكاء يتكون من عدد من القدرات والمهارات، ولذلك وضع مفردات تقيس هذه القدرات، وتلك المهارات المفردة التى ينجح فى حلها الغالبية الإحصائية من أرباب عمر معين، تصلح لقياس ذكاء أطفال هذا العمر، وبذلك يكون قد استخدم معايير العمر age norms ومن ثم العمر العقلى ونسبة الذكاء وكيف كان أداء الطفل مقارنة بأداء زملائه فى السن[١٢].

إسهامات الفريد بينيه فى الكشف عن العبقرية والضعف العقلى :

وكما يقول شان ماجام T.E. Shanmugam أن أول محاولة لتصنيف التخلف العقلى mental retardation بالنسبة للذكاء كانت على يد بينيه حيث بدأ فى وضع اختبار للذكاء فى وقت مبكر نسبيًا يرجع إلى عام ١٩٠٥ فى فرنسا بقصد التعرف على أولئك الأطفال العاجزين عن الاستفادة من التعليم العادى، والذين لا يرجع عجزهم إلى علة جسمية، وتضمن الاختبار لقياس القدرة على الاستدلال وحل المشكلات Reasoning and Problem – Solving أكثر من اهتمامه بقياس القدرات الحركية أو المهارات الحركية Motor Skills وميز بين مفهوم العمر العقلى والعمر الزمنى، ولقد تبع ذلك ابتكار تيرمان لمصطلح نسبة

الذكاء وهى عبارة عن نسبة العمر العقلى للفرد إلى عمره الزمنى Inlelligence quotient[١٣].

وفى الحديث عن تاريخ دراسة العبقرية Genius أو ما يمكن أن يسمى بالشذوذ الإيجابى Positive abnormalities، يقال أن ألفريد بينيه قد أسهم فى إجراء البحوث المنظمة حول العبقرية بابتكاره اختبارات الذكاء الحديثة، بالاشتراك مع سيمون Simon فى فرنسا[١٤]. وفى عام ١٩١٦ قام لويس تيرمان Lewis Terman لى جامعة ستانفورد الأمريكية بترجمة طبعة معدلة من اختبار بينيه سيمون وأسماها اختبار ستانفورد – بينيه للذكاء The Stanford-Bient Test of Intelligence وكان الشخص الذى يحصل على درجات عالية جدًا على هذا المقياس يعد عبقريًا. وبذلك تم وضع كلمة عبقرية فى شكل كمى موضوعى محدد لدرجة جعلت الناس يطلقون على تيرمان اسم أبو علم نفس الشواذ الإيجابى Positive abnormal psychology[١٥].

لقد كان بينيه من الرواد الأوائل فى حركة القياس العقلى Psychological measurement حيث ساهم فى فهمنا لتوزيع القدرات العقلية فى مجموع سكان المجتمع، كما ساهم ذلك فى تحديد الفروق بين الذكاء والإبداع[١٦] Creativity.

مفهوم الذكاء ومكوناته فى نظر ألفريد بينيه :

ولقد نجح بينيه فى التغلب على الصعوبات التى واجهها العلماء فى وضع تعريف دقيق للذكاء، واهتم فورًا بقياسه لتحقيق مطالب المجتمع من الاستفادة من تطبيق هذه المقاييس، حيث نحا نحوًا عمليًا، وتبعه فى ذلك علماء النفس الأمريكان، حيث لم يكن بينيه مهتمًا بتحديد طبيعة الذكاء بقدر ما كان مهتمًا بالتعرف على المفردات التى سوف تميز الطفل الغبى من الطفل الذكى أو النجاح والفشل الدراسى، ولذلك كان اختباره عبارة عن غربلة اجتماعية للأذكياء والأغبياء أكثر من كونه دراسة أكاديمية حول طبيعة الذكاء، ولقد نجح بينيه فى التنبؤ بالنجاح الدراسى[١٧].

وكما ساهمت أعمال بينيه فى دراسة العبقرية والإبداع ساهمت أيضًا فى

فلسفة الفريد بينيه التى تكمن وراء تصميم المقياس :

ويشترط فى اختيار المفردات ألا يلزم للإجابة عليها تلقى الطفل تدريبًا أو تعليمًا معينًا. ولذلك فإن اختبار الذكاء يقيس الاستعداد العقلى Mental aptitude أكثر من كونه مقياسًا لتحصيل الطفل Achievement لا يحتاج إلى تدريب خاص مسبق Training ولذلك يلزم اختيار مفردات جديدة، بحيث لا يختلف فى الإجابة عليها الطفل الذى ذهب إلى المدرسة، وذلك الذى لم يذهب بعد المفردات تصبح غير مألوفة بالنسبة لجميع الأطفال، أى لم يسبق لأى منهم الخبرة التعليمية بها، كأن تقدم له مجموعة من الرسوم والأشكال، ويصبح عليه أن يدرك الشكل المختلف من بينها. ولاختيار المفردات الصالحة، افترض بينيه أن الطفل الكبير سنًا ينجح فى الإجابة الصائبة على المفردة بينما الأصغر سنًا لا يحقق نجاحًا.

Unless older children are more successful than younger ones in answering the item is unsltisfactory[20].

القدرة على الحل الصائب تزداد بالتقدم فى السن، ويكفى أن ينجح ٦٠٪ من أرباب سن معينة ليكون السؤال صالحًا لهم، ومن ثم يتم وضعه فى الاختبار النهائى المخصص لقياس ذكائهم، من الأسئلة الصالحة لأرباب سن السبع سنوات ما يلى :

الأخ ولد والأخت ... وكلما تقدمنا فى العمر، كلما نحت الأسئلة نحو التجريد Abstracting كأن نقول مثلاً ماذا نعنى بكلمة الحرية،وإذا كنا نقيس شيئًا عامًا واحدًا، فإن كل مفردة من مفردات الاختبار يتعين أن تترابط مع الدرجة الكلية للاختبار المعبرة عن ذكاء الفرد نسبة النجاح فى الإجابة على سؤال معين تزداد بالتقدم فى العمر[٢١].

هناك استخدامات عديدة لاختبارات قياس الذكاء، ولقد كان الفريد بينيه طبيبًا فى الأصل، وطلب منه التعرف على التلاميذ ضعاف العقول، بغية القيام بالتدريس لهم باتباع مناهج تدريس خاصة ومختلفة Different Methods عن

تلك المستخدمة مع الأسوياء من التلاميذ[٢٢]، وكان من الطبيعى أن يصمم الفريد بينيه اختباره على أساس من مفهومه عن الذكاء وطبيعته on his notions of itelligence والناجم عن ملاحظته حول بناته هو شخصيًا، من حيث ملاحظة أن القدرة العقلية تزداد بالتقدم فى السن Intellectual capacity increases with age ما الذى نلاحظ على سلوك الشخص الذكى؟

وتعتبر اعمال بينيه من بين أنشطة علم النفس الفردى، ذلك الفرع الذى وجه اهتمامه نحو ما يوجد بين الناس من فروق، بعد أن كان الاهتمام موجهًا نحو ما يوجد بينهم من اتفاق، واعتبارهم جميعًا نسخة واحدة، ولقد ابتكر بينيه، لأول مرة، مصطلح العمر العقلى فى عام ١٩٠٨ تأسيسًا على مقارنة أداء الطفل بأداء زملائه.

طرق اختيار مفردات المقياس وتكوينه :

وتتدرج الأسئلة فى الصعوبة بالتقدم فى العمر على هذا النحو :

العمر العقلى ١-٢ سنة : حرك عودًا من الكبريت المشتعل أمام عين الطفل، يحصل الطفل على الدرجة الكلية إذا حرك عيناه فى اتجاه الضوء.

العمر العقلى ٣ سنوات : اطلب من الطفل أن يريك أنفه وعينيه وفمه.

العمر العقلى ٤ سنوات : اعرض على الطفل سكينًا وأسأل ما هذا؟ وماذا نسميها، ثم اعرض عليه شلنًا ثم مفتاحًا مع توجيه نفس الأسئلة السابقة والمطلوب النجاح فى تسمية ثلاثة أشياء.

العمر العقلى ٥ سنوات : ارسم مربعًا طول ضلعه ٤ سم بالحبر، واطلب من الطفل أن ينسخه بعد إعطائه قلمًا وحبرًا.

العمر العقلى ٦ سنوات : ارسم شكلاً هندسيًا بالحبر واطلب من الطفل أن ينسخه على أن يأخذ الشكل الهندسى شكل "المعين" diamond بعد إعطائه أيضًا الحبر والقلم.

العمر العقلى ٧ سنوات : خذ هذا المفتاح وضعه فوق الكرسى،

(٢٩) المصدر السابق.

(٣٠) Higland, p. 403.

(٣١) op. cit., p. 404.

(٣٢) Edwards, D.C., General Psychology, Macmillan Co., London, 1968, p. 252.

(٣٣) Sanford, F.H., Psychology : A Scientific Study of man, Wadsworth, San Francisco, 1961, p. 102.

(٣٤) op. cit., p. 103.

(٣٥) op. cit., p. 104.

(٣٦) كمال دسوقي، مرجعه السابق، ص ١٤١١.

(٣٧) Sanford, p. 100.